ما حكاه القرآن بقوله :

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ﴾

(من الآية ٦١ سورة البقرة)

وهنا قال الحق : اذهبوا إلى أى مِصْرٍ من الأمصار والمدن تجدوا ما تريدون : ﴿ اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم ﴾ . لقد أعطاهم الحق الرزق بدون السببية ، إنه منه مباشرة ، فكان من الواجب أن تشكروا من أراحكم ، وجعل لكم الرزق ميسرا . لكنهم لم يشكروا الله ، بل تمردوا ، ولذلك ذيل الحق الآية بقوله : ﴿ وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ . نعم فهم ظلموا بعدم شكر النعمة .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُواْ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ١٦١ ﴾

وهذه القصة مذكورة أيضاً فى سورة البقرة ، ونعرف أن قوله سبحانه : ﴿ وإذ قيل لهم ﴾ ، ولم يذكر الحق من القائل ؛ لأن طبيعة الأمر فى الأسباط أنه سبحانه جعل لكل سبط منهم عيناً يشرب منها ، وكل سبط له نقيب ، وهذا دليل على أنهم لا يأتلفون ؛ فلا يكون القول من واحد إلى الجميع ، بل يصدر القول من المشرع الأعلى وهو الحق إلى الرسول ، والرسول يقول للنقباء ، والنقباء يقولون للناس .

وبعد أن تلقى موسى القول أبلغه للنقباء ، والنقباء قالوه للأسباط ، وفى آية أخرى قال الحق : ﴿ وإذ قلنا ﴾ . وهذا القول الأول وضعنا أمام لقطة توضح أن

المصدر الأصيل فى القول هو الله ، ولأنهم أسباط ولكل سبط مشرب ؛ لذلك يوضح الحق هنا أنه أوحى لموسى . وساعة ما تسمع « وإذ » فاعلم أن المراد اذكر حين قيل لهم اسكنوا هذه القرية ، لقد قيل إن هذه القرية هى بيت المقدس أو أريحا ، لكنهم قالوا : لن ندخلها أبداً لأن فيها قوماً جبارين وأضافوا :

﴿ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة المائدة)

والحق لا يبين لنا القرية فى هذه الآية ؛ لأن هذا أمر غير مهم ، بل جاء بالمسألة المهمة التى لها وزنها وخطرها وهى تنفيذ الأمر على أى مكان يكون : ﴿ اسكنوا هذه القرية وكلوا منها ﴾ .

ويوضح الحق : أنا تكفلت بكم فيها كما تكفلت بكم فى التيه من تظليل غمام ، وتفجير ماء من صخر ، ومَنّ وسلوى . وحين أقول لكم ادخلوا القرية واسكنوها فلن أتخلى عنكم : ﴿ وكلوا منها حيث شئتم ﴾ . وقديماً كان لكل قرية باب ؛ لذلك يتابع سبحانه : ﴿ وقولوا حطة وادخلوا الباب سجداً ﴾ .

والحطة تعنى الدعاء بأن يقولوا : يا رب حط عنا ذنوبنا فنحن قد استجبنا لأمرك وجئنا إلى القرية التى أمرتنا أن نسكنها ، وكان عليهم أن يدخلوها ساجدين ؛ لأن الله قد أنجاهم من التيه بعد أن أنعم عليهم ورفّههم فيه . وإذا ما فعلوا ذلك سيكون لهم الثواب وهو :

﴿ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٔـٰتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

(من الآية ١٦١ سورة الأعراف)

وسبحانه يغفر مرة ثم يكتب حسنة ، أى سلب مضرة ، وجلب منفعة ، لكن هناك فى سورة البقرة قد جاء النص التالى :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَـٰيَـٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾

(سورة البقرة)

فالكيان العام واحد ونجد خلافاً فى الألفاظ واللقطات عن الآية التى وردت فى سورة الأعراف . أول خلاف ﴿ وإذ قلنا ﴾ ، ﴿ وإذ قيل ﴾ ، وشاء الحق ذلك ليأتى لنا بلقطة مختلفة كما أوضحنا من قبل . ففى آية سورة البقرة يقول سبحانه : ﴿ ادخلوا ﴾ وفى آية سورة الأعراف يقول : ﴿ اسكنوا ﴾ ، ونعلم أن الدخول يكون لغاية وهى السكن أى ادخلوا لتسكنوا ، وأوضح ذلك بقوله فى سورة الأعراف : ﴿ اسكنوا ﴾ ليبين أن دخولهم ليس للمرور بل للإقامة . وأراد سبحانه أن يعطيهم الغاية النهائية ؛ لأنه لا يسكن أحد فى القرية إلا إذا دخلها .

وهكذا نرى أن كلمات القرآن لا تأتى لتكرار ، بل للتأسيس وللإتيان بمعنى جديد يوضح ويبين ويشرح . ويقول الحق هنا فى سورة الأعراف : ﴿ وكلوا منها حيث شئتم ﴾ . وفى آية سورة البقرة يقول : ﴿ فكلوا منها حيث شئتم رغداً ﴾ .

وحين أمرهم الله بالدخول وكانوا جوعى أمرهم الحق أن يأكلوا ، على الفور والتوّ بتوسع ، لذلك أتى بكلمة « رغداً » لأن حاجتهم إلى الطعام شديدة وملحة ، لكنهُ بعد أن أمرهم بالسكن أوضح لهم أن يأكلوا ؛ لأن السكن يحقق الاستقرار ويتيح للإنسان أن يأكل براحة وتأن . وقال الحق هنا فى سورة الأعراف : ﴿ وقولوا حطة وادخلوا الباب سجداً ﴾ . أى أنه قدم قولهم « حطة » على السجود ، وفى آية سورة البقرة قدم السجود فقال :

﴿ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ ﴾

(من الآية ٥٨ سورة البقرة)

جاء الحق بهذا الاختلاف لأنه علم أن انفعالات السامعين تختلف ساعة الدخول ، فهناك من ينفعل للقول ، فيقول أول دخوله ما أمر به من طلب الحطة وغفران الذنب من الله ، وهناك آخر ينفعل للفعل فيسجد من فور الدخول تنفيذاً لأمر الله . وأيضاً قال الحق هنا فى سورة الأعراف :

﴿ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٔـٰتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

(من الآية ١٦١ سورة الأعراف)

وفى سورة البقرة يقول : ﴿ نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين ﴾ .

ونعلم أن صيغة الجمع تختلف ؛ فهناك « جمع تكسير » وجمع تأنيث ، ففى جمع التكسير نغير من ترتيب حروف الكلمة ، مثل قولنا « قفل » فنقول فى جمعها « أقفال » . أما فى جمع التأنيث فنحن نزيد على الكلمة ألفاً وتاء بعد حذف ما قد يوجد فى المفرد من علامة تأنيث ، مثل قولنا « فاطمة » ، و« فاطمات » ، و« أكلة » ، و« أكلات » وهذا جمع مؤنث سالم ، أى أن ترتيب حروفه لم يتغير ، وجمع المؤنث السالم يدل على القلة . لكن جمع التكسير يدل على الكثرة فجاء - سبحانه - بجمع المؤنث السالم الذى يدل على القلة وبجمع التكسير الذى يدل على الكثرة لاختلاف درجات ونسب الخطايا ؛ لأن المخاطبين غير متساوين فى الخطايا ، فهناك من ارتكب أخطاء كثيرة ، وهناك من أخطأ قليلاً . والاختلاف حدث أيضاً فى عجز الآيتين ، فقال فى سورة البقرة : ﴿ وسنزيد المحسنين ﴾ . وجاء عجز سورة الأعراف بدون « واو » فقال : ﴿ سنزيد المحسنين ﴾ .

وقد عودنا ودعانا الحق إلى أن نقول : اغفر لنا وأنت خير الغافرين ، وارحمنا وأنت خير الراحمين ، واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة . وهنا يوضح سبحانه : أنا لن أكتفى بأن أغفر لكم وأن أرفع عنكم الخطايا . لكنى سأزيدكم حسناً ، وفى هذا سلب للضرر وجلب للنفع . كأن الله حينما قال : « خطاياكم » بجمع التكسير الذى ينبىء ويدل على كثرة الذنوب والخطايا و« خطيآتكم » التى تدل على القلة انشغلوا وتساءلوا : وماذا بعد الغفران يا رب فقيل ؟ لهم : ﴿ سنزيد المحسنين ﴾ هل سيغفر لنا فقط ، أو أنه سيجازينا بالحسنات أيضاً ؟ وكانت إجابة الله أنه سيغفر لهم ويزيدهم ويمدهم بالحسنات . وقد عقدنا هذه المقارنة المفصلة بين آية سورة البقرة وآية سورة الأعراف لنعرف أن الآيات لا تتصادم مع بعضها البعض ، بل تتكامل مصداقاً لقول الحق :

﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾

(من الآية ٨٢ سورة النساء)

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى

﴿ قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَآءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٦٢) ﴾

هذه الآية تدل على أنهم افترقوا فرقتين ؛ لأن الحق سبحانه مادام قد قال : ﴿ منهم ﴾ فهذا يعنى أن بعضهم قالوا وفعلوا المطلوب ، وبعضهم ظلموا وبدلوا القول ، فقد أمرهم الحق أن يقولوا : « حطة » وطلب منهم أن يدخلوا سجداً . والتغيير منهم جاء فى القول ؛ لأن القول قد يكون بين الإنسان وبين نفسه بحيث لا يسمعه سواه . لكن الفعل مرئى مما يدل على أن بعضهم يرائى بعضاً ، ففى القول أرادوا أن يهذروا ويتكلموا بما لا ينبغى ولا يليق ، فبدلاً من أن يقولوا : « حطة » قالوا : « حنطة » استهزاءً بالكلمة .

وهكذا نرى أن التبديل جاء فى القول ، لكن الفعل لم يأت فيه كلام ، وإن قال بعضهم : إن التبديل أيضاً حدث من بعضهم فى الفعل . فبدلاً من أن يدخلوا ساجدين دخلوا زاحفين على مقعداتهم ، كنوع من التعالى ، لكن الحق لم يذكر شيئاً من ذلك ؛ لأن سلوكهم فى الفعل قد يكون السبب فيه أن بعضهم لا قدرة له على الفعل .

﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ ﴾

(من الآية ١٦٢ سورة الأعراف)

وكأن الحق يذكرنا بما فعله معهم من رعايتهم فى أثناء التيه وكيف ظلل عليهم الغمام وأنزل عليهم المن والسلوى ، واستسقى لهم موسى فجاءت المياه . لكن غريزة التبديل والتمرد لم تغادرهم . وماداموا قد بدَّلوا فى كلمات الله ، فعليهم أن ينالوا العقاب : ﴿ فأرسلنا عليهم رجزاً من السماء ﴾ .

وهناك آية ثانية فى سورة البقرة يقول فيها الحق : ﴿ فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء ﴾ . والفارق بين « الإنزال » وبين « الإرسال » أن الإنزال يكون مرة واحدة . أما الإرسال فهو مسترسل ومتواصل . ولذلك يقول الحق سبحانه فى

المطر : ﴿ وأنزلنا من السماء ماء طهوراً ﴾ . لأن المطر لا ينزل طوال الوقت من السماء . لكن فى الإرسال استمرار ، اللهم إلا بعضاً من تأثير الهواء . ولذلك يقول الحق : ﴿ وأرسلنا الرياح لواقح ﴾ . فالذى يحتاج إلى استمرارية فى الفعل يقول فيه الحق : « أرسل » بدليل أن الله حينما أراد أن يجىء بالطوفان ليغرق المكذبين بموسى قال :

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ ﴾

(من الآية ١٣٣ سورة الأعراف)

وعندما أراد أن يرغب عاداً قوم سيدنا هود فى الاستغفار والتوبة والرجوع عما كانوا عليه من الكفر والآثام قال لهم :

﴿ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴾

(من الآية ٥٢ سورة هود)

إذن فالإرسال يعنى التواصل ، أما الإنزال فهو لمرة واحدة ، وأراد الحق سبحانه من قصة بنى إسرائيل أن يأتى لنا بلقطة فجاء بكلمة « أنزلنا » ، ولقطة أخرى جاء فيها بـ « أرسلنا » ؛ لأن العقوبة تختلف باختلاف المذنبين ، والمذنبون مقولون بالتشكيك ، فهذا له ذنب صغير ، وآخر ذنبه أكبر ، وكل إنسان يأخذ العذاب على قدر ذنبه ؛ فمن أذنب ذنباً صغيراً أنزل الله عليه عقاباً على قدر ذنبه . ومن تمادى أرسل الله عليه عذاباً يستمر على قدر ذنوبه الكبيرة .

وهنا يقول الحق :

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴾

(من الآية ١٦٢ سورة الأعراف)

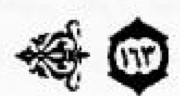
و « رجزاً » أى عذاباً ، وهناك رِجْز ، ورُجْز ، والرِّجز يُولد من الرُّجْز ؛ وينشأ مثل قوله الحق : ﴿ والرُّجزَ فاهجر ﴾ . أى اهجر الرُّجْز . . أى المآثم والمعاصى والذنوب لتسلم من الرِّجز . . أى من العذاب . وهنا يبين الحق أنهم تلقوا العذاب بسبب ظلمهم ، وهناك فى الآية الأخرى قال : ﴿ بما كانوا يفسقون ﴾ .

والفسق يسبق الظلم ؛ لأن الإنسان لا يمكن أن يظلم نفسه بمخالفة منهج إلا إذا

فسق أولاً ، ولذلك جاء الحق بالمسبَّب وجاء بالسبب ، وهكذا نتأكد أن كل كلمة فى القرآن جاءت لمعنى أساسى تؤديه ولا تكرار إلا لمجموع القصة فى ذاتها ، أما لقطات القصة هنا ، ولقطات القصة هناك فأمور جاءت تأسيساً فى كل شيء لتعطى معانى ولقطات جديدة .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾



هنا سؤال عن القرية التى كانت حاضرة البحر ، ونعلم أن القرية الأولى التى دخلوها هى « بيت المقدس » ولم تكن على البحر ، والقرية التى كانت على البحر هى « أيلة » أو « مدين » أو « طبرية » ، المهم أنها كانت « حاضرة البحر » أى قريبة من البحر ومشرفة عليه ؛ لأننا نقول فلان حضر ، أى كان بعيداً فاقترب . فمثل الإسكندرية يمكن أن نسميها حاضرة البحر .

وقوله : « واسألهم » والسؤال هنا موجه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليوجه السؤال إلى أهل الكتاب ، ويطلب منهم أن ينظروا فى كتبهم ليعرفوا أن ما يقوله هو وحى من الله إليه ؛ لأنهمَ يعلمون أنه صلى الله عليه وسلم لم يجلس إلى معلم ، ولم يقرأ فى كتاب ، وإنما علّمه من أرسله ، إنّه صلى الله عليه وسلم لا يريد أن يَتَعَلَّم منهم ، بل يريد أن يُعْلِمَهم أنه يعلم ، وهم يعلمون أنه لا مصدر له كعلم سائر البشر ؛ لا جلس على معلم ولا قرأ فى كتاب ولذلك تجد « ماكُنْتَ »

القرآن أى قوله الحق : « ما كنت » و « ماكنت » و « ما كنت » و « ما كنت » مثل قوله :

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة القصص)

ومثل قوله تعالى :

﴿ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا ﴾

(من الآية ٤٥ سورة القصص)

ومثل قوله تعالى :

﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَـٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة آل عمران)

إذن فأنت يا رسول الله لم تكن معهم لتقول لهم ما حدث وحصل لهم ، بل إن ذلك موجود عندهم فى كتبهم ، إذن فالذى علمك هو من أرسلك . كذلك هنا مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

(سورة العنكبوت)

وفى هذا القول أمر من الله سبحانه وتعالى أن يخبرهم أنه سبحانه قد علمه وأعلمه بما لا يستطيعون إنكاره ليتيقنوا أن الله يعلمه ليؤمنوا به .

﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ ﴾

(من الآية ١٦٣ سورة الأعراف)

وكلمة « واسألهم » تحل لنا إشكالات كثيرة ، مثال ذلك حديث الإسراء ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى بالأنبياء بصلاة إبراهيم .

فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقد رأيتنى فى الحجر وقريش تسألنى عن مسراى ، فسألونى عن أشياء من بيت

المقدس لم أثبتها فكربت كرباً ما كربت مثله قط ، فرفعه الله إلىّ أنظر إليه ، ما سألونى عن شىء إلا أنبأتهم به ، وقد رأيتنى فى جماعة من الأنبياء ، وإذا موسى قائم يصلى وإذا هو رجل جعد كأنه من رجال شنوءة ، وإذا عيسى قائم يصلى أقرب الناس شبها به عروة بن مسعود الثقفى ، وإذا إبراهيم قائم يصلى أقرب الناس شبهاً به صاحبكم ـ يعنى نفسه ـ فحانت الصلاة فأممتهم فلما فرغت قال قائل : يا محمد هذا مالك خازن جهنم فالتفت إليه فبدأنى بالسلام »[1].

وتأتى آية فى القرآن تقول :

﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾

(من الآية ٤٥ سورة الزخرف)

والأمر لرسول الله عليه الصلاة والسلام أن يسأل رسل الله من قبله ، ومتى يسألهم ؟ لابد أن توجد فرصة ليلتقوا فيسأل . إذن حين يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم إنه التقى بالأنبياء وكلمهم وصلى بهم فالخبر مصدق لأنه قد أدى أمر الله : ﴿ واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر ﴾ . والسؤال هنا سؤال للتقرير والتقريع والتوبيخ : وما قصة القرية التى كانت حاضرة البحر ؟

لقد قلنا إن حاضرة البحر أى القريبة من البحر ، ونفهم أن ما تتعرض له الآية من سؤالهم يشير إلى أنّ للبحر فيه مدخلاً ؛ لأن المسألة متعلقة بالحيتان والسمك والصيد ، لذلك لابد أن تكون بلدة ساحلية .

﴿إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾

(من الآية ١٦٣ سورة الأعراف)

وحيتان جمع حوت ، مثلما يجمعون « نُوناً » ـ وهو الحوت أيضاً ـ على « نينان » ؛ وهو صنف من الأسماك . لقد حرم الله عليهم العمل فى يوم معين لينقطعوا فيه للعبادة وهو يوم « السبت » ، ومازالت عندهم بعض هذه العادات ، حتى إن واحداً منهم زار أمريكا ورفض أن يركب سيارة يوم السبت لأنه يوم عطلة ،

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه .

ورفض كذلك أن يعمل حتى جاء اليوم التالى . وشاء الحق سبحانه أن يؤدبهم حينما ارتكبوا أشياء مخالفة للمنهج ، وسلب منهم وقتاً للعمل وقال :

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة النساء)

وفى هذه مُثُل وعِبَر لأى منحرف ، ولكل منحرف نقول : إياك أن تظن أنك بانحرافك عن منهج الله ستأخذ أشياء من وراء ربنا وتسرقها ، لا ؛ لأن ربنا قادر أن يبتليه بعقاب يفوق ما أخذ آلاف المرات ، فالمرتشى مثلاً يفتح له الله أبواباً من الأمراض ومن العلل ومن المصائب فيضيع عليه كل شىء أخذه .

إذن فقد استحل بنو إسرائيل أشياء محرمة ، فابتلاهم الله بأن يحرمهم من أشياء كانت حلالاً لهم . وهكذا نرى أن ما وقع عليهم من عقاب كان بظلمهم لأنفسهم ؛ لأنهم انشغلوا بالدنيا وبالمادة ، فحرم عليهم العمل فى يوم السبت ، وهؤلاء الذين كانوا يقيمون قريباً من حاضرة البحر يبتليهم الله البلاء العظيم ، ويرون السمك فى المياه وهو يرفع زعانفه كشراع المركب ، وتطل عليهم أشرعة الحيتان وهم فى بيوتهم ، وهذا ابتلاء من ربهم لهم وعقاب ؛ لأنهم ممنوعون من صيده ، ويرون هذا السمك أمامهم فى يوم السبت ، لكن فى بقية الأيام التى يباح فيها العمل ، كيوم الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة لا تظهر لهم ولا سمكة واحدة : ﴿ ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون ﴾ .

وهنا قالوا : مادام ربنا قد حرم علينا أن نصطاد يوم السبت فعلينا أن نحتال . وصنعوا كيساً من السلك المضفر والذى نسميه « الجوبية » وهم أول من صنعوا هذه الجوبية بشكل خاص ، ويدخل السمك فيها ولا يستطيع الخروج منها ، فيأتى السمك يوم السبت ويدخل فى الجوبية ويستخرجونه يوم الأحد . وفى هذا اعتداء . أو يصنعون حوضاً له مدخل وليس له مخرج وفى هذا مكر . وتمكر لهم السماء بحيلة أشد . لقد أراد الله ابتلاءهم لأنهم فسقوا عن المنهج . وخرجوا عن الطاعة ، واستحلوا أشياء حرمها الله ؛ لذلك يحرم الله عليهم أشياء أحلها لغيرهم .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾

وحينما تجد أن طائفة قالت قولاً ، فلابد أن هناك أناساً قيل لهم هذا القول . إذن ففيه « قوم واعظون » ، و « قوم موعوظون » ، و « قوم مستنكرون وعظ الواعظين » . وهكذا صاروا ثلاث فرق :

الذين قالوا وعظاً لهم : لماذا لا تلتزمون بمنهج الله ؟ هؤلاء هم المؤمنون حقًّا . وقالوا ذلك لأنهم رأوا من يخالف منهج الله . والذين لاموا الواعظين هم الصلحاء من أهل القرية الذين يئسوا من صلاح حال المخالفين للمنهج .

وحين ندقق في الآية :

﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ ﴾

(من الآية ١٦٤ سورة الأعراف)

نعلم أن القائلين هم من الذين لم يعتدوا ، ولم يعظوا وقالوا هذا التساؤل لمن وعظوا ؛ لأنهم رأوا أن الوعظ مع الخارجين على منهج الله لا ينفع . كما قال الله لرسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ فلعلك باخع نفسك ألّا يكونوا مؤمنين ﴾ .

هنا يسأل الحق رسوله : ولماذا تُحزن نفسك وتعمل على إزهاق روحك . وهنا قال بعض بني إسرائيل : لم تعظون هؤلاء المغالين في الكفر ، لماذا ترهقون أنفسكم معهم ، إنهم يعملون من أجل أن يعذبهم الله . وماذا قال الواعظون ؟ : ﴿ قالوا معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون ﴾ .

وما هي المعذرة إلى الله ؟ . يقال : عذرك فلان إذا كنت قد فعلت فعلاً كان في

ظاهره أنه ذنب ثم بينت العذر فى فعله ، كأن تقول : لقد جعلتنى انتظرك طويلاً وتأخرت فى ميعادك معى . أنت تقول ذلك لصديق لك لأنه أتى بعمل مخالف وهو التأخر فى ميعادٍ ضربه لك . فيرد عليك : تعطلت منى السيارة ولم أجد وسيلة مواصلات ، وهذا عذر . إذن فمعنى « العذر » هو إبداء سبب لأمر خالف مراد الغير . ولذلك يقال : أعذر من أنذر ، والحق يقول :

﴿ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ ﴾

(من الآية ٩٠ سورة التوبة)

ونعلم أيضاً أن هناك مُعْذِراً ، ومُعذِّراً . والمُعَذِّر هو من يأتى بعذر كاذب ، والمُعْذِر هو من يأتى بعذر صادق . وقال الواعظون : نحن نعظهم ، وأنتم حكمتم بأن العظة لا تنفع معهم لأنهم اختاروا أن يهلكهم الله ويعذبهم ولكنا لم نيأس ، وعلى فرض أننا يئسنا من فعلهم ، فعلى الأقل نكون قد قدمنا لربنا المعذرة فى أننا عملنا على قدر طاقتنا .

وكلمة « وَعْظ » تقتضى أن نقول فيها : إن هناك فارقاً بين بلاغ الحكم ، والوعظ بالحكم ؛ فالوعظ أن تكرر لموعوظ ما يعلمه لكنه لا يفعله . كأن تقول لإنسان : قم إلى الصلاة ، هو يعلم أن الصلاة مطلوبة لكنه لا يقوم بأدائها .

إذن فالوعظ معناه تذكير الغافل عن حكم ، ومن كلمة الوعظ نشأت الوعّاظ . وهم من يقولون للناس الأحكام التى يعرفونها ، ليعملوا بها ، فالوعاظ إذن لا يأتون بحكم جديد .

وبعض العلماء قال : إن قول الحق : ﴿ لم تعظون قوماً الله مهلكهم ﴾ ليس مراداً به الفئة التى لم تفعل الذنب ولم تعظ ، إنما يراد به الفئة الموعوظة ، كأن الموعوظين قالوا : إن ربنا سيعذبنا فلماذا توعظوننا ؟ . ونقول : لا ؛ لأن عجز الآية ينافى هذا . فالحق يقول : ﴿ معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون ﴾ .

ومجىء « لعلهم » يؤكد أن هذا خبر عن الغير لا أنه من الموعوظين .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ ﴾

ويخبرنا الحق هنا أن الموعوظين حينما نسوا ما وعظهم به بعض المؤمنين أهلكهم الله بالعذاب الشديد جزاءً لخروجهم وفسوقهم عن المنهج وأنجى الله الفرقة الواعظة . وماذا عن الفرقة الثالثة التى لم تنضم إلى الواعظين أو الموعوظين ؟ الذين قالوا : ﴿ لم تعظون قوماً الله مهلكهم ﴾ إن قولهم هذا لون من الوعظ ؛ فساعة يخوفونهم بأن ربنا مهلك أو معذب من يخرج على منهجه ، فهو وعظ من طرف آخر .

وقوله الحق : ﴿ فلما نسوا ما ذكروا به ﴾ يدل على أنه قد وعظهم غيرهم وذكروهم . ويعذب الحق هؤلاء الذين ضربوا عرض الحائط بمنهجه ولم يسمعوا مَن وعظوهم ، وخرجوا على تعاليمه فظلموا أنفسهم واستحقوا العذاب الشديد ؛ فالمسألة ليست تعنتاً من الله ؛ لأنهم السبب فى هذا ، إما بفسق ، وإمّا بظلم للنفس .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾ ﴾

وأخذهم بعذاب يدل على أنه لم يزهق حياتهم ويميتهم ؛ لأن العذاب هو إيلام من يتألم ، والموت ليس عذاباً لأنه ينهى الإحساس بالألم ، ولنتعرف على الفارق بين الموت والعذاب حين نقرأ قصة الهدهد مع سيدنا سليمان ، يقول سيدنا سليمان حين تنبه لغياب الهدهد عندما وجد مكانه خاليا :

﴿مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ۝٢٠ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ﴾

(من الآيتين ٢٠ ، ٢١ سورة النمل)

هكذا نرى الفارق بين العذاب وبين الموت . وهنا يقول الحق : ﴿ فلما عتوا عن ما نهوا عنه ﴾ و « عتوا » تعنى أبوْا وعصوْا واستكبروا فحق عليهم عذاب الله الذى أوضحه قول الحق : ﴿ كونوا قردة خاسئين ﴾ .

لأن « العتو » كبرياء وإباء ؛ فيعاقبهم الله بأن جعلهم كأخس الحيوانات ، فصيرهم أشباه القرود ، كل منهم مفضوح السوءة ، يسخر الناس منهم ويستهزئون بهم . فهل انقلبوا قردة ؟ . نعم ؛ لأنك حين تأمر إنساناً بفعل . . ألاَ تُقدِّر قبل الأمر له بالفعل أنه صالح أن يفعل وألا يفعل ؟ . وحين يقول الله : ﴿ كونوا قردة ﴾ فهل فى مكنتهم أن يصنعوا من أنفسهم قردة ؟ . ونقول : إن هذا اسمه « أمر تسخيرى » أى اصبحوا وصُيِّروا قردة . وقد رأوهم على هذه الهيئة من وعظوهم ، وهى هنا مقولة « خبر » نصدقه بتوثيق من قاله ، وكان هذا الخبر واقعاً لمن شاهده .

ولذلك نجد المعجزات التى حدثت لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم غير القرآن الذى وصلنا ككتاب منهج ومعجزة وسيظل كذلك إلى قيام الساعة ، لكن ألم ينبع الماء من بين أصابعه صلى الله عليه وسلم ؟ لقد حدث ذلك وغيره من المعجزات وشاهده أصحابه صلى الله عليه وسلم ، وأخبرونا بالخبر ، وكان ذلك آية تُثَبِّت يقينهم وإيمانهم . وتثبت لنا خبراً ؛ فإن اتسع لها ذهنك فأهلاً وسهلاً ، وإن لم يتسع لها فلا توقف إيمانك ؛ لأنها آية لم تأت من أجلك أنت ، وكل معجزة كونية حدثت لرسول الله فالمراد بها من شاهدها ، ووصلتك أنت كخبر ، إن وثقت بالخبر صدقته ، وإن لم تثق به ووقفت عنده فلن ينقص إيمانك . غير أنه يجب على من وصل إليه الخبر بطريق مقطوع به ، أن يصدق ويذعن .

وقد أخبر الحق هنا بالأمر بقوله : ﴿ كونوا قردة خاسئين ﴾ بأنه أوقع عليهم عذاباً بأن جعلهم قردة خاسئين ، فهذا عقاب للذين عتوا عمَّا نهوا عنه . والذين وعظوهم أو عاصروهم هم من شاهدوا وقوع العذاب .

وهل الممسوخ يظل ممسوخاً ؟ . إن الممسوخ قرداً أو خنزيراً ، يظل فترة كذلك ليراه من رآه ظالماً ، ثم بعد ذلك يموت وينتهى .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ ﴾

وتأذّن نجد مادتها من الهمزة والذال والنون ، فمنه أُذْن ، ومنها أذان ، وكلها يراد بها الإعلام ، والوسيلة للإعلام هى الأذن والسمع ،حتى الذى سنعلمه بواسطة الكتابة نقول له ليسمع . ثم يكتب ويقرأ ، وما قرأ إلا بعد أن سمع ؛ لأنه لن يعرف القراءة إلا بعد أن يسمع أسماء الحروف « ألف » ، « باء » إلخ ، ثمّ تهجاها . إذن فلا أحد يقرأ إلا بعد أن يسمع ، وهكذا يكون السمع هو الأصل فى المعلومات ، ونقرأ فى القرآن :

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ ﴾

(سورة الانشقاق)

وأذنت لربها . . أى سمعت لربها ، فبمجرد أن قال لها : « انشقى » امتثلت وانشقت .

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

والكلام هنا بالنسبة لبنى إسرائيل ، ويبين لنا سبحانه أنهم مع كونهم مختارين فى أن يفعلوا ، « فإن مواقفهم الإيمانية ستظل متقلبة مترددة ، ولن يهدأ لهم حال

فى نشر الفساد وإشاعته ، ولذلك يسلط الله عليهم من يسومهم سوء العذاب ، ولماذا ؟ .

لأنهم منسوبون لدين ، والله لايسوم العذاب للكافر به وللملحد ، لأنه بكفره وإلحاده خرج عن هذه الدائرة ، إذ لم يبعث الله له رسولا. ولكن المنسوب لله ديانة ، والمنسوب لله رسالة ، والمنسوب لله كتاباً ؛ إذا فسد مع كون الناس ويعلمون عنه أنه تابع لنبى ، وأن له كتاباً ، حينئذ يكون أسوة سيئة فى الفساد للناس ، فإذا ما سلط الله عليهم العذاب فإنما يسلط عليهم لا لأجل الفساد فقط ، ولكن لأنه فساد منسوب لمن هو منسوب إلى الله . وعرفنا أن مادة أذن كلها مناط الإعلام ، وحينما تكلم الله عن خلقنا قال :

﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾

(من الآية ٧٨ سورة النحل)

إنّ الحق ـ سبحانه ـ يسمى العرب المعاصرين لرسول الله أميين ، أى ليس عندهم شىء من أسباب العلم ، وسبحانه خلق لنا وسائل العلم . بأن جعل لنا السمع والأبصار والأفئدة ، وهى وسائل العلم التى تبدأ بالسمع ثم بالأبصار ثم الأفئدة . ومن العجيب أنه رتبها فى أداء وظيفتها ؛ لأن الإنسان منا إذا كان له وليد ـ كما قلنا سابقاً ـ ثم جاء أحد بعد ميلاده ووضع أصبعه أمام عينه فإنه لا يطرف ؛ لأن عينه لم تؤد بعد مهمة الرؤية ، وعيون الوليد لا تؤدى مهمة الرؤية إلا بعد مدة من ثلاثة أيام إلى عشرة ، ولكنك إذا جئت فى أذنه وصرخت انفعل .

إن هذا دليل على أن أذنه أدت مهمتها من فور ولادته ، بينما عينه لا تؤدى مهمة الرؤية إلا بعد مدة ، فأولاً يأتى السمع ، ثم يأتى البصر ، ومن السمع والبصر تتكون المعلومات ، فتنشأ عند الإنسان معلومات عقلية ، ويقولون للطفل مثلاً : إياك أن تقبل على هذه النار حتى لا تحرقك ، فلا يصدق ، ومنظر النار يجذبه فيلمسها ، فتلسعه مرة واحدة ، وبعد أن لسعته النار مرة واحدة ، لم يعد فى حاجة إلى أن يتكرر له القول : بأن النار محرقة . فقد تكونت عنده معلومة عقلية . فأولاً

يأتى السمع ، ثم الأبصار ، ثم تأتى الأفئدة . ولذلك قال سبحانه : ﴿ لعلكم تشكرون ﴾ . تشكرون له سبحانه أن أمدكم بوسائل العلم ليخرجكم من أميتكم .

وهناك لفتة إعجازية أخرى ؛ فحين تكلم الحق عن وسائل العلم ، تكلم عن السمع بالإفراد ، وعن الأبصار بالجمع . مع أن هذه آلة ، وهذه آلة ؛ فقال : (السمع والأبصار) ولم يقل السمع والبصر ، ولم يقل الأسماع والأبصار ؛ لأن السمع هى الآلة التى تلتقط الأصوات ، وليس لها سد من طبيعتها ، أما العين فليست كذلك ، ففى طبيعة تكوينها حجاب لتغمض . وإذا أنت أصدرت صوتاً من فمك يسمعه الكل ، وعلى هذا فمناط السمع واحد ، لكن فى أى منظر من المناظر قد تكون لديك رغبة فى أن تراه ، فتفتح عينيك ، وإن لم تكن بك رغبة للرؤية فأنت تغمضهما .

إذن فالأبصار تتعدد مرائيها ، أما السمع فواحد ولا اختيار لك فى أن تسمع أو لا تسمع . أما البصر فلك اختيار فى أن ترى أو لا ترى ، وهذه أمور رتبها لنا الحق فى القرآن قبل أن ينشأ علم وظائف الأعضاء ، ورتبها سبحانه فأفرد فى السمع ، وجمع فى البصر مع أنهما فى مهمة واحدة ، إلا آية واحدة جاءت فى القرآن :

﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾

(من الآية ٣٦ سورة الإسراء)

قال الحق ذلك لأن المسئولية هنا هى الفردية الذاتية ، وكل واحد مسئول عن سمعه وبصره وفؤاده ، وليس مسئولاً عن أسماع وأبصار وأفئدة الناس . ونرى مادة السمع قد تقدمت ، وبعدها جاءت مادة البصر إلا فى آية واحدة أيضاً ، تتحدث عن يوم القيامة :

﴿ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا ﴾

(من الآية ١٢ سورة السجدة)

هنا قدّم الحق مادة الإبصار على مادة السمع ؛ لأن هول القيامة ساعة يأتى سنرى تغيراً فى الكون قبل أن نسمع شيئاً .

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وتأذن أى أعْلم الله إعلاماً مؤكداً بأنكم يا بنى إسرائيل ستظلون على انحراف دائم ، ولذلك سيسلط الله عليكم من يسومكم سوء العذاب ، إما من جهة إيمانية ، مثلما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم في بنى النضير وبنى قريظة وبنى قينقاع وخيبر ، وإما أن يسلط عليهم حاكماً ظالماً غير متدين ، مصداقاً لقوله الحق :

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا ﴾

(من الآية ١٢٩ سورة الأنعام)

وكذلك مثلما حدث من بختنصر ، وهتلر . إذن « وإذ تأذن ربك » أى أعلم ربك إعلاماً مؤكداً ؛ لأن البشر قد يُعْلمون بشىء ، ولكن قدرتهم ليست مضمونة لكى يعملوا ما أعلموا به ، فإذا أعلمت أنت بشىء فأنت قد لا تملك أدوات التنفيذ ، أمّا الله ـ سبحانه ـ فهو المالك لأدوات التنفيذ ، والإعلام منه مؤكد ، ولذلك يُعْلم بالشىء ، أما غيره فالظروف المحيطة به قد لا تساعده على أن ينفذ . مثال ذلك : صحابة رسول الله الأول وهم مستضعفون ولم يستطيعوا أن يحموا أنفسهم من اضطهاد المشركين والكافرين ، وصار كل واحد يبحث لنفسه عن مكان يأمن فيه ؛ منهم من يذهب إلى الحبشة أو يذهب إلى قوى يحتمى به ، فينزل الله فى هذه الظروف العصيبة آية قرآنية لرسول الله يقول فيها :

﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾

(سورة القمر)

وتساءل البعض كيف يُهزْمون ونحن غير قادرين على حماية أنفسنا . فعندما نزلت هذه الآية قال سيدنا عمر : أى جمع يُهزم ، قال عمر : فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يثب فى الدروع وهو يقول : ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾ ، فعرفت تأويلها يومئذ . إن الله سبحانه وتعالى أعْلَمَ بالنصر ، وهو قادر على إنفاذ ما أعْلَم به على وفق ما أعْلَم ؛ لأنه لايوجد إله آخر

يصادمه . إذن « وإذ تأذن ربك » يعنى أعلم إعلاماً مؤكداً ، وحيثية الإعلام المؤكد أنه لا توجد قوة أخرى تمنع قدرته ولا تنقض حكمه .

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾

(من الآية ١٦٧ سورة الأعراف)

أى يبعث الله عليهم من يسومهم سوء العذاب . وهناك بنص القرآن مبعوث ، والله يخلى بينه وبينهم ، فلا يمنعهم الله منه ، إنما يسلط الله عليهم العذاب باختيار الظالم . مثلما قال الحق :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ ﴾

(سورة مريم)

أى أنه ـ سبحانه ـ أرسلهم لهذه المهمة وخلّى بينهم وبين الذين يستمعون إليهم : ﴿ وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة ﴾ .

وكلمة « إلى يوم القيامة » تفيد أن هذا العنصر ، المشاكس من اليهود سيبقى فى الكون كخميرة (عكننة) إلى أن تقوم الساعة ، لماذا ؟!

هم يقومون بمهمة الشر فى الوجود ، ولولا أن هذا الشر موجود فى الوجود ، ويعض الناس بمساوئه وإفساداته ، لم يكن من الناس من يتهافت على الحق وعلى الخير . فالشر ـ إذن ـ جاء ليعضّ الناس بآلامه وإفساده ليتجه الناس إلى الخير ، ولذلك تجد أقوى انفعالات تعتمل فى صدور المسلمين وأقوى نزوع حركى إلى الإسلام حين يجدون مَن يضطهد قضية الإسلام .

إن مهمة الشر فى الوجود أنه يجمع عناصر الخير فى الوجود ، ومهمة الباطل فى الوجود أنه يحفز عناصر الحق ويحضهم على محاربة الشر ومناهضته ؛ لأن الباطل حين يعم ، ويتضايق منه الناس ، ترفع يدها وتقول : يا ناس افعلوا الخير. ولو لم يحدث ذلك فلن تجد من يقبل على الخير بحمية وحرارة .

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾

(من الآية ١٦٧ سورة الأعراف)

(ويسوم) من مادتها سام ، ونسمعها فى البهائم ونسميها السائمة وهى التى تطلب مقومات حياتها ، وليس صاحبها هو الذى يجهز لها مقومات حياتها . أما البهائم التى تُربط وليست سائمة فهى التى تجد من يجهز لها طعامها ، إذن أصل « سام » أى طلب ، وبهيمة سائمة أى تطلب رزقها وأكلها بنفسها .

و « سام » أيضاً أى طلب العذاب . ولا يطلب أحد العذاب إلا أن يكون قد أفرغ قوته فى التعذيب . فيطلب ممن يقدر على العذاب أن يعذب ، أى أن الله يسلط ويبعث عليهم من يقوم بتعذيبهم جهد طاقته ، فإذا فترت طاقته أو ضعفت فإنه يستعين على تعذيبهم بغيره .

إذن فطلب العذاب معناه أنه : عَذَّب هو ، ولم يكتف بأنه عذَّب بل طلب لهم عذاباً آخر ، و « يسومهم سوء العذاب » أى العذاب السيىء الشديد . ويذيل الحق الآية بقوله تعالى :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

(من الآية ١٦٧ سورة الأعراف)

ومعنى سرعة الشيء أن تأخذ زمناً أقل مما يتوقع له ؛ لأن السرعة هي اختصار الزمن . « لسريع العقاب » هى للدنيا وللآخرة ، فساعة يقترفون ذنباً . يسلط عليهم من يعذبهم فى الدنيا ، أما الآخرة ففيها سرعة عالية ؛ لأن مسافة كل إنسان إلى العذاب ليست هى عمر الدنيا ، فالإنسان بمجرد أن يموت تنتهى الدنيا بالنسبة له . والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « إذا مات أحدكم فقد قامت قيامته »[1] .

إن هناك سرعة لحساب الأخرة . وحتى لو افترضنا أننا سنبقى جميعاً دون حساب إلى أن تنتهى الدنيا ، فإن الحساب سيكون سريعاً لأن كل لحظة تمر على أى إنسان تقربه من العقاب ، وحتى لو كان عمر الدنيا مليون سنة ، فكل يوم يمر سينقص من عمر الدنيا .

---

(١) رواه الديلمى عن أنس مرفوعاً .

وحين يقول الحق سبحانه بعد سرعة العقاب « وإنه لغفور رحيم » قد نجد من يسأل كيف والحديث هناعن العقاب ؟ ونقول : إنه سبحانه الذى يتكلم . وهو القادر ، فإذا قال : إنه لسريع العقاب ، فهذا يعني أنه يسرع بعقاب المفسدين والظالمين ؛ لأنه غفور رحيم بالمظلومين الذين يُظلمون ، إذن فسرعة عقاب الظَّلَمَة رحمة منه بالمظلومين . أو أن الله كما قال « سريع العقاب » فإنه ـ سبحانه ـ يأتى بالمقابل لكى يشجع كل إنسان على الدخول فى رحمته .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ ﴾

وقد قال سبحانه قبل ذلك أيضاً :

﴿ وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة الأعراف)

ولكن القول هنا يجىء لمعنى آخر : ﴿ وقطعناهم فى الأرض أمماً منهم الصالحون ومنهم دون ذلك ﴾ .

وقد قطعهم الحق حتى لايبقى لهم وطن ، ويعيشون فى ذلة ، لأنهم مختلفون غير متفقين مع بعضهم بعضا منذ البداية ، كانوا كذلك منذ أن كانوا أسباطاً وأولاد إخوة على خلاف دائم . وهنا يقول الحق : ﴿ وقطعناهم فى الأرض أمماً ﴾ .

ومعنى « قطعنا هم » أى أن كل قطعة يكون لها تماسك ذاتى فى نفسها ، وأيضاً لا تشيع فى المكان الذى تحيا فيه ، ولذلك قلنا : إنهم لا يذوبون فى المجتمعات أبداً ، ـ كما قلنا ـ فعندما تذهب إلى أسبانيا مثلاً تجد لهم حيًّا خاصًّا ، كذلك فى